الاهداء : الى عدنان مردم بك اعجاباً بقصيدته «الورقاء»

القاهرة في ضوء القمر [1]

لمحمد فهمي

يشارفها البدر كالمستهام ... ويسكب من نوره اللؤلؤي
فتنغمس في لجة من ضياء ... وتحلم .. يا حلمها العبقري
تأملْ تراها كزنجية ... ترامت على الشاطىء السجدي
ومدّت ذراعين عبر الرمال ... وعبر حقول الغنا السندسي
تغلّفها ساجيات الظلال ... ترفّ بسحر الضياء الغني
كأن الوجود سنا مقلةٍ ... وتلك الظلال... السواد الشهي!

* * *

توسّدت النيل في مخدع ... يهدهده الموج عذبَ النغمْ
ويسكب في أذنيها الغناء ... نشيد القرون عريق القدم
يزف لها راقصات المنى ... توثّب في ضمة تضطرم
فتنثر على صدره الستار ... وتبسم اذ شاقها في الحُلُم

* * *

رويدك... هذي طيوف الدجى ... تهوّم للفتنة الناعمْ
تطوف على رَبوات النيام ... تعاوجهم بالرؤى الباسمه
تحذنَ من الضوء ضافي الذيول ... ملاعب رأد الغنا قاتمه
تسلّقنَ من ومضات الشعاع ... وغصن في الوجنة العالمه
فكم في رحاب الفضا حمة ... وكم في امالي الذرى هائمة ...

* * *

وخلف النوافذ كم من خليٍّ ... وكم من غريقٍ بأشجانهِ
ومن ساهر يشكي برحهُ ... طواه الضنى بين أحضانهِ
ومهزوم في صراع الحياة ... يضج الصرير بأستانهِ
ومحتضن إلفه والمنى ... كطيرين في الروض في بانهِ
تساقوا من الحب ريق النعيم ... فيا للخلود ورضوانهِ

* * *

أرى الكون نشد أغرودة ... ومدّ سرادقه للسماءْ

---

(١) أوحت الى الشاعر هذه القرية على جسر النيل

فان سألناه : « وهل اختصت بالغدر والخيانة أمة دون أمة ؟ » أجابنا متثبتاً : « كلا ، بل هم في الغدر والخيانة سواء :

أحلل بمن شئت ، لا يعدمك نائبة خان اليمانون طرّاً والشآمونا »

فان قلت له : « لعل في غير أهل الشام واليمن ، من يرضيك من الشعوب » قال عابساً :

« كن من الروم أو من الترك او من الفرس أو من أي جنس من أجناس البشر ، واتخذ أي صورة من صور الاناسي فان هذه الصورة دليل على موفور شرّك ولؤم طبعك ، وما دمت على صورة الانسان فهي بلا شكّ :

« صورة خبرت بأنك مجبو ل على الشر ، والمهيمن خازي

واختلاف من منصب وبلاد واتفاق على رضاً بالمخازي »

الخير والشر

ان الشر — فيما يرى ابو العلاء — أصل تالدٌ في الطبع ، والخير عارض طريفٌ مستجدٌ عليه ، كما أن الظلمة أصل والنور طارىء :

« وكأن الشر أصل فيهم وكذا النور حديث في الظُّلَم »

وهو يرى أن كل ما يكتنف الباحث المنصف كفيل باقناعه بصحة هذا الزعم . فالطباع مجبولة على الشر : طباع الأغنياء والفقراء جميعاً . وهذا دليل على أنها تنتقي من معين واحد . أنظروا الى ذلكم الفقير المعدم ، كيف يجزي حماره الذي يحمل عليه أثقالهُ أسوأ الجزاء ، دون أن يُسلفَ اليهِ الحمار إساءة أو يجترح ذنباً . إنهُ ليرى حماره قد جهده طول سيره وأعجزه ثقل حمله ، فوقف برهة قصيرة لعلهُ يستجمع قوته ويستأنف سعيه ، فلا يكاد الحمار يتوانى عن السير حتى يثور صاحبه عليه مغيظاً محنقاً . وقد نسي في لحظة واحدة كل ما أسلفهُ اليهِ ذلكم الخادم الصابر من صنيع ، فيهوي على جسمه بعصاه ، دون أن تأخذه فيهِ شفقة أو رحمة . ذلكم ما يفعلهُ الفقير ، وهو أقلُّ من الغني شرّاً [1] ، وأدنى الى تفهم معاني الرحمة والشفقة ومزاياها . فلننصت الى بيان المعري ، ولنُصغ اذهاننا بتلك اللوحة الفنية الصادقة التي أبدع فيها تصوير تلكم المعاني الرائعة ، إذ قال :

« ألم تر أن الخير يكسب الحجا طريقاً ، وأن الشر في الطبع مُتلَد

لقد رابني مَعْدى الفقير بحمله على العَيْر ضرباً ، ساء ما يتقلّد

يحمله ما لا يطيق فإن ونى أناخ على ذي فترة يتجلّد »

« يتبع »

(١) قال : « عبد من عفف النفس أفقر »

وأبدى المفاتن حتى العيون تأنّق في وشيها ما يشاء
وتوّجها بعروس الدجى منير الفنون ورب البهاء
فسلسل روح الهوى في الوجود ونشّره في رحاب الفضاء
وأشعل في كل حيّ جوًى ومس الجماد فلبى النداء!

* * *

فياناعمين بظل الفراش ألا البدر هبوا لتمجيده
تجلّى على صفحات السماء ووشّحن بتنضيده
وفاض على الأرض من دونق سنا الخلد من لي بتخليده؟
هنا نشأة الكون في عُرسها هنا موكب النور في عيده...

* * *

هنا النيل يبدو كحوريّة لفتْ تتحم فيض الثنا
تمرّجُ بالنور أعطافها كأنّ بهنّ بريقَ الشفى
ويرنو لها البدر في قبلة فينثر الناس أنّى رنا
ويرقص إشعاعُه في الضفاف على نغم طائف بالدُّنا

* * *

وسرّحتُ طرفيَ نحو الجزيرة تسّفر في اللجّة المقمره
فأبصرتُ فتنتها تستحيل ضباباً من النور في بحره
بدا الأيلكُ كالمسك في لونه سوادٌ. ولكن ما أبهره!
تحفُّ به خاشعات النخيل خشوع الخطيئة المغفره

* * *

وقفتُ كأني على ربوةٍ من الخلد أو سدرة المنتهى
تكشّف أسرارها الرائعات مفاتنَ تُعشي عيون الثُّهى
تجدّدها بعبير السناء وتحتسن الروح في أسرها
تعاوجها نَسَماتُ الخلود تداعب مثل الرؤى جفنها
فتذهل سكرى على نغمة قيل الملائك يحدو بها ...

* * *

ولوّحت للبدر في نشوتي أفضتُ الضياء على النفتين!
أرى النيل يخطر في بردة بريق الشعاع ووميض اللجين
وألبسته وشيَ ما حاكهُ سناؤك من رنق النيرين
ألا أمسك سناءك في راحتيّ فإني مددت لك الراحتين
لأنهل من نبعك المنتي وأروي بقلبي لظى الشعنين